السلطات أصرت على أن تتولى هي بنفسها الاشراف على عملية الانفاق. فرفض هيرش هذا الشرط ، ولم يبق أمامه الا أن يسحب اليهود من روسيا ليعيد توطينهم في الخارج . ولما كان مقتنعا بامكان اليهود أن يصبحوا مزارعين ممتازين أن أتيحت لهم الفرصة ، فقد ابتاع ٧٥٠ الف هكتار في الارجنتين ، وأقام عشرين مستعمرة استوطنت فيها ٣٥٠٠ أسرة . الا أن معظم هؤلاء انتقلوا فيما بعد للسكنى في المدن .

وكان منهاج هيرش يتضمن تهجير ٢ ١/٢ ملايين يهودي من أوروبا الشرقية على مدى ربع قرن ، الا أن العمر لم يمتد به ليشهد تحقيق هذا الحلم . فقد مات في مزرعته بالمجر في ٢٠ نيسان ١٨٩٦ ، بالغا من العمر ٦٥ سنة. ونقلت رفاته الى باريس لتدفن هناك. أما زوجته فقد ماتت بعده بثلاثة أعوام*. ولم يترك البارون وريثا شرعيا . فان ابنه الوحيد لوسين كان قد مات أثناء حياته ، بعد أن خلف ابنة غير شرعية تزوجت بعد ذلك من أحد أصحاب البنوك اليهود . وللبارون ايضا ابنان غير شرعيين استطاع أن يحصل لهما على لقب النبالة ، وان لم يمنحهما اسمه . وقد مات أحد الابنين (وأمهما ليست معروفة) في ١٩١٢ ، اما الآخر المولود في ١٨٧٩ ، ويدعى الكونت بينديرن ، فقد أصبح نائبا في مجلس العموم البريطاني ، ثم نزح للاقامة في امارة ليختنشتاين ، المشهورة بأمرين : صغر حجمها (فهي من أصغر دول العالم) وقلة ضرائبها .

مات البارون الشهير ، وحمل معه الى القبر أسرارا كثيرة لم تشاركه فيها الا زوجته . ولما كانت المؤسسات المالية الضخمة التي أنشأها في حياته ، أو ورثها عن أبيه ، تابعة له شخصيا ولا يشاركه فيها أحد باستثناء زوجته ، فان الوثائق والاوراق المتعلقة بمعاملاته ونشاطاته بقيت بمنأى عن الفحص . فلم تطلها عين غريبة أبدا ، ومع وفاة أرملته كلارا ، اختفى الارشيف بكامله ، وأثبط الاوصياء على تركة هيرش أي محاولة لتأليف الكتب عن البارون . أي أنهم أرادوا أن تنتهي شهرة البارون مع حياته ، ولذا تضاءل ذكره على مدى السنين الى أن كاد يصبح نسيا منسيا هذه الايام . ولا ريب أن هذا هو ما أراده البـــارون شخصيا ، اذ أدرك ان أي استفاضة في دراسة حياته وانجازاته ، ووضعها تحت المجهر الفاحص الدقيق ستكشف من الفضائح ما سيظل عالقا باسمه وأسماء الكثيرين من معاصريه ، ومعظمهم من مشاهير الناس ، الى الابد. وهذه الفضائح ستكون مسندة بالادلة الثابتة ، وليس مجرد شبهات وشكوك . وبعد هذه النبذة عن حياة البارون ، علينا الآن أن نفحص سجله الصهيوني . اننا نعلم ان هيرش قابل تيودور هيرتزل قبل سنة واحدة من وفاته (أي وفاة البارون) . وهذه المقابلة الشهيرة جرت في قصر البارون بباريس ، في حزيران ١٨٩٥ ، وفيما يلي ملخص لوقائعها كما سجلها هيرتزل في مذكراته :

انه (أي هيرتزل) في غاية القلق . فهل سيستجيب البارون الشهـــير الى دعوته بانشاء الدولة اليهودية يا ترى ؟

انه يحمل معه خطة كاملة للمشروع في ٢٢ صفحة . فما الامـــل في تبني البارون للفكرة ؟ وكان هيرتزل قد ابتاع قفازا جديدا للمناسبة التاريخية ، الا أنه جعده عمدا لئلا يبدو جديدا** ومع انه كان من اسرة غنية، الا ان فخامة الرياش في قصر البارون

---

* أنفقت زوجته ١٥ مليون دولار على المشاريع الخيرية اليهودية ، بعد وفاة البارون ، كما أوصت بانفاق عشرة ملايين دولار أخرى من تركتها بعد وفاتها .

** كان لهرتزل ولع بشراء القفازات الجديدة للمناسبات التاريخية، وذكر ذلك في مذكراته . انه ايضا ابتاع قفازا جديدا لمقابلته مع القيصر الالماني فيلهلم .